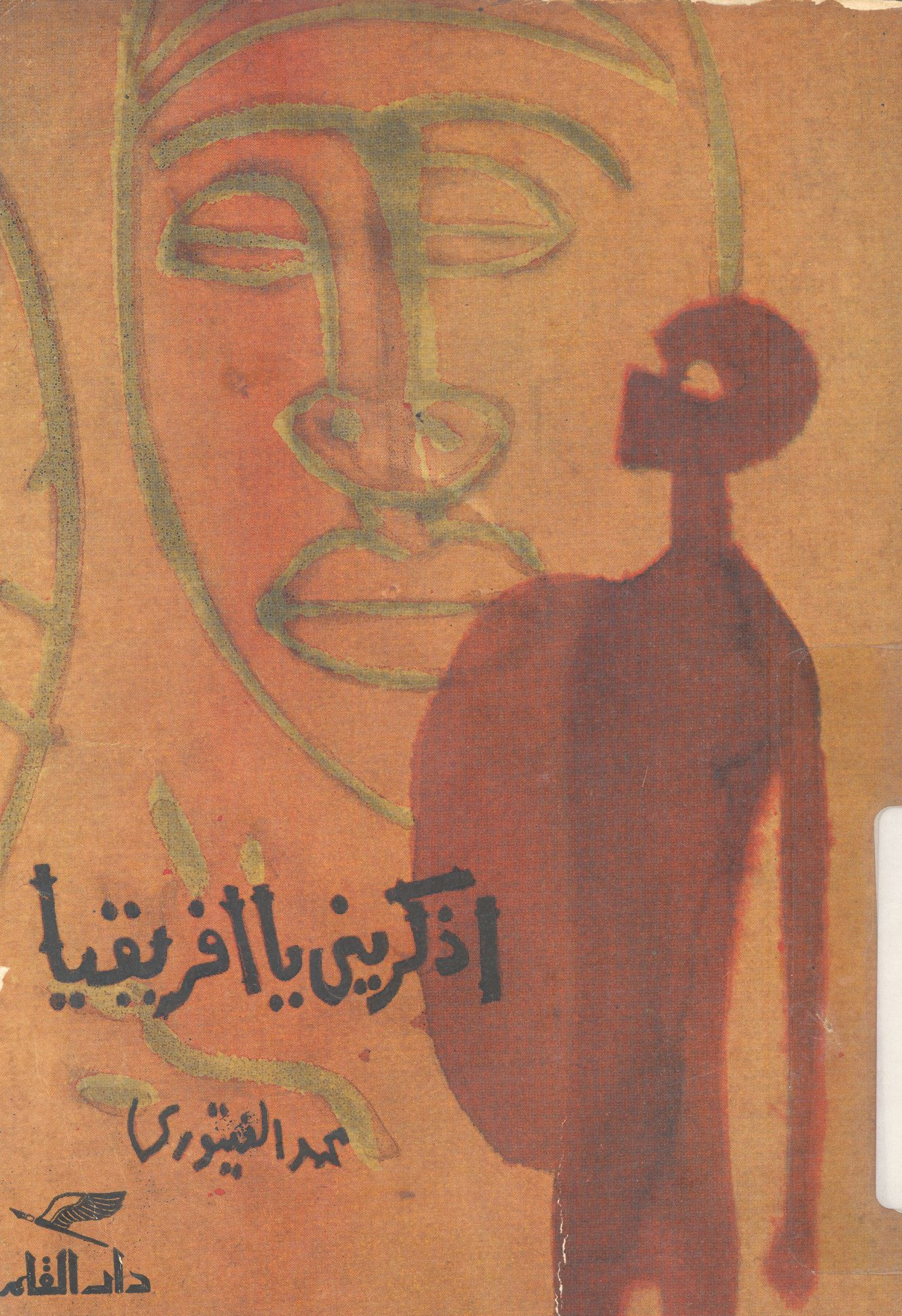

اذكريني يا افريقيا
محمد الفيتوري
دار القلم

اذكريني
يا أفريقيا

لوحة الغلاف مهداة:
بريشة الرسام الكبير بهجت
اللوحات الداخلية
بريشة الرسام السوداني حاكم

محمد الفيتوري

اذكريني يا أفريقيا



الإهداء

إلى شهداء ثورة ٢١ أكتوبر..
الذين لم يموتوا أبدًا.

تجربتى فى الشعر

إذا كان الشعر موهبة ، وإذا كان مستقبل كل موهبة ، إنما يتشكل وفقاً لقوانين خاصة ، تفرضها مجموعة الظروف والعلاقات الاجتماعية ، والتاريخية المحيطة بصاحبها ، فالذى لا شك فيه ، هو أن ذلك الصبي الأسمر القصير النحيل ، الذى ما يزال يلوح فى مخيلتى الآن ، وهو يرفل فى أعوامه الإثنى عشر ، كان يحمل فى قلبه ، وفى عينيه ، إحساسا بتفرد ما .. من المبالغة أن أتسرع إلى القول ، بأن كتابة الشعر كانت هدفا له .. ربما كان الشعر حينذاك ، حلمه الخيالى الغامض الذى لم تتحدد معالمه فى وجدانه بعد ..

كان قد أتم حفظ القرآن الكريم كله ، عن ظهر قلب ،

تأهبا لدخول الأزهر الشريف ، كما تقضى رغبة والديه .

وأذكر أنه عانى فى حفظه كثيراً . . كم من امتحان سقط فيه ، وعوقب على نسيانه أشد العقاب ، من عصا شيخه الضرير السمين .. كانوا يعلقونه من قدميه ، فى « الفلكة » — قطعة من الجريد ، مشدود إلى طرفيها قطعة من حبل مرخاة عند الوسط بعض الشيء ، بحيث تتسع لقدمى مثله — ويأخذ اثنان من أنداده ، يقفان هنا وهناك ، فى الضغط عليها حتى تصير قدماه بينهما ، مسطحتين فى وضع متواز — وتبدأ عصا الفقيه ، حركتها البندولية صعودا وهبوطا ، فوق قدميه ، دونما هوادة ، أو استجابة لصرخاته وأناته الضعيفة المتقطعة .. ولم يكن « سيدنا » يكف عن ممارسة هذه العملية ، إلا بعد أن تكون قد تعبت ذراعاه .

ويعود الصبي إلى بيته ، منكسر الخاطر ، متورم القدمين ، حاملا حذاءه الذى سيظل لبضعة أيام قادمة ، ضيقا عليهما ، تحت إبطيه .. وكان يغيظه كثيراً أن أمه وأباه ، لم يكونا يبديان أقل تذمر ، وهما يريانه فى مثل حالته البائسة هذه ، فلقد نذراه — وهو طفلهما الوحيد — لكتاب الله الكريم .

وفى مرحلته هذه، استطاع أن يعثر ذات يوم، على كتاب ثمين فى مكتبة أبيه .. عثر على سيرة عنترة بن شداد .. من يكون عنترة هذا؟ وراح يلتهم، بكل ما فى روحه من فضول وجوع إلى الحياة، صفحات الجزء الأول، ثم الجزء الثانى .. حتى أكمل بقية أجزاء الأسطورة الشعبية الرائعة، ومنها عرف أن عنترة فارس لا يشق له غبار، وأنه عاشق لأجمل صبايا قبيلة عبس «عبلة» وأنه أيضاً — وهذا أهم — عربى أسود .. أسود مثله! وأعاد قراءة السيرة، منذ البداية، حتى أنه ليذكر الآن، كيف استطاع عنترة الابن غير الشرعى لشداد، أن يفرض ذاته، وأن يؤكد وجوده، وهو الشخص الضائع النسب، ما بين الحرية والاسترقاق، فى مجتمع الجاهلية المتعصب، الذى لا سيادة فيه إلا للأقوى والأشرف والأغنى، ولا حياة فيه للعبيد والمساكين والفقراء (كر يا عنترة .. إن العبد لا يحسن الكر .. كر وأنت حر).

ووجدت الانفعالات الكثيرة الحبيسة والمجهولة التى كانت تماوج داخل رأسه الصغير الكبير، فى شعر وقوة وضخامة عنترة بن شداد — كما يتخيلها — متنفساً لها ..

ثم شعر أن هذه الشخصية ، قد أفرغت لكثرة ما عايشها ، لم تعد تعطيه أحلامه أو تشبع نزوعه ، وكان عليه أن يبحث عن عنترة آخر ، فى كتاب جديد .. ووقعت عيناه على رحلة بنى هلال من الشرق إلى الغرب ، وتعرف على أبو زيد الهلالى سلامة ، والزناتى خليفة ، ودياب ، والأميرة الناعسة ، وكان يجد متعة لا حدَّ لها ، وهو يشترك بخياله ، فى المعارك التى خاضوها ، والمشاق التى تعرضوا لها خلال رحلتهم التاريخية ، وكثيراً ما استغرقته رؤية فارس بنى هلال الأسمر ، وهو يصول ويجول ، ممتطيا صهوة جواده ، رافعا رمحه ودرقته ، منشداً فى الميدان :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة   ولا كل من ركب الحصان خيال

ومن ثم عرف الطريق إلى إشباع احتياجاته الروحية والعاطفية ، وقرأ حمزة البهلوان ، والأميرة ذات الهمة ، وسيف بن ذى يزن ، وفيروز شاه ، وألف ليلة وليلة ، ولما لم يجد المزيد منها ، بدأ يتقرب من بعض الكتب الأخرى التى تصور أنها قد تتضمن شيئاً ، يبقى عليه عالمه الخاص ، الذى كان قد شاده لنفسه .. جميع مغامرات شيرلوك هولمز ،

وطرزان ، وأرسين لوبين ، وغيرها من روايات الجيب ، ويبدو أنه قد قرأ بالضرورة حينذاك ، أعمالا أدبية كبيرة ، مترجمة ضمن هذه السلسلة ، مثل البعث ، وآنا كارنينا ، والحرب والسلام ، وآلام فرتر ، وفاوست وغادة الكاميليا ، وماجدولين .

والحق أن أباه لم يكن يضن عليه أبداً ، بشيء مما يريد ، فقط حين يتعارض ما يحب أن يقرأه ، مع ما يجب أن يقرأه ، أو أن يتهدد مؤهلاته التي لا بد من توفرها فيه ، ليكون أحد طلبة العلم الشريف .

وكانت الحرب العالمية الثانية ، تموت اختناقا في أيدي الحلفاء ، وأسماء هتلر والنازية ، وموسوليني والفاشية ، وستالين والبلشفيك ، وروزفلت وتشرشل أشبه برموز وألغاز ، تتحدى مداركه ومستوى فهمه ، بكل ما تنطوي عليه من معان ودلالات.

ماذا كانت تعني الحرب بالنسبة له ؟ لا أكثر من الخوف من الشيء المجهول ، من الموت . .

وشهدته حواري الإسكندرية وأزقتها ، وهو يتدحرج مع المارين إلى الخنادق ، لينزوي معهم بعيداً عن نيران الطائرات

المغيرة ، التى طالما روّعت سكان المدينة الجميلة الهادئة ، خلال غاراتها الليلية المتواصلة ، وطالما أحالت أحياءها ومبانيها إلى خرائب وأنقاض .

وانتهت الحرب . . ودخل الأزهر الشريف . . ومارس أنماطاً من العلاقات والمعارف لم يكن قد ألفها من قبل .

وفى زحام ألفية ابن مالك ، ومشاكل النحو والإعراب ، وقضايا الفقه والشريعة ، ومجادلات الفلاسفة والمتكلمين ، أحس بالغربة والحزن ، يخيمان على روحه ، وتكادان تكتمان أنفاسه . .

وكتب حينذاك شيئا عن الحزن والغربة ، عرف فيما بعد أنه ليس إلا مقدمة الشعر . .

كان هذا الشىء الذى كتبه وقرأه على نفسه ، صورة طبق الأصل ، لما قرأه لشعراء آخرين ، يسكنون بطون الكتب ، ويطلون عليه من شرفات العصور . . طرفة ابن العبد ، والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وعنترة . . اكم كان سعيداً وفخوراً ، حين اكتشف أن فارسه وشاعره الأسطورى ،

أحد أولئك الذين بلغ من عظمة وسمو قصائدهم ، أن كتبت بماء الذهب ، وعلقت على أستار الكعبة ، وسميت لذلك بالمعلقات .

وقال له أحد شيوخه ، وقد لمس شغفه بقراءة الشعر ، إن شعراء المعلقات ليسوا نهاية الشعر ، هناك شعراء الصعاليك ، ولا تنس أن الشعر ازداد عذوبة وجمالا . بعد أن باركته حضارة الدولة الإسلامية .

وأعجبه من هؤلاء ، الشريف الرضى ، وتلميذه مهيار ، والمعرى ، وأبو تمام ، ورفض البحترى ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس ، وخلال قبوله ورفضه ، كان يمارس كتابة أشيائه الخاصة ، التى كان يسميها شعراً ، ويحرص على أن يضمنها دفتى كتاب . . وكما خيل إليه أنه شاعر ، خيل إليه أنه عاشق . .

وكتب أكداساً هائلة من الصفحات ، فى بكاء حبه اليائس ، وشكوى زمنه الغادر ؟ ورثاء شبابه الغض ، الذى زحفت عليه الشيخوخة فى الريعان .

وكبر قليلا ، وكبرت معه أشياؤه الخاصة ، إحساسه بالحزن والغربة والشعر . . وكان يزداد انطواء على نفسه ، كلما ارتطمت عيناه بحقيقة جديدة ، من حقائق الحياة .

(*) . . « دائما تحاصرني عيونهم . . تتابعني حيثما أسير . .
إنهم يسخرون مني . . لقد فضضت سر اللغز . . سر مأساتي . .
إنني قصير ، وأسود ، ودميم . »

هكذا كان يقول لنفسه ، كان يفضح نفسه فقط ، أمام
نفسه ، وبعد ذلك بأعوام ، استطاع أن يتأوه :

فقير أجل . . ودميم دميم بلون الشتاء ، بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه وتسخر حتى وجوه الهموم
فيحمل أحقاده في جنون ويحضن أحزانه في وجوم
ولكنه أبداً حالم وفي قلبه يقظات النجوم

لقد كان أليما ، ومطعوناً ، إلى حد الاحتراق . . ولم يكن
يفوقه ، في إحساسه الهائل بعمق الألم ، وقتامة الواقع ، إلا شاعر
واحد ، خلاف جميع الشعراء العرب الذين قرأ لهم فيما بعد . .
شاعر واحد ، أو شاعران على الأكثر .. الأول اسمه أبو القاسم
الشابي ، والثاني إلياس أبو شبكة . . لقد أعطاه الأول نموذجا

(*) جميع الفقرات الموضوعة بين الأقواس ، والواردة في هذا
المقال ، مأخوذة من مذكراته الخاصة . .

كاملا ، لقدرة الشاعر الصادق ، فى التعبير عن الألم ، وفلسفة الإيمـان به :

وإذا ما استخفنى عبث الناس تبسمت فى أسى وجمود
بسمة مرة كأنى أستل من الشوك ذابلات الورود

بينما أعطاه الثانى ، نموذجا رائعاً ، للقدرة على قهر الألم ، والاستعلاء عليه :

وحملت تابوتى وسرت بمأتمى .

« لا تستطيع معدتى هضم أشعار المازنى والعقاد ، أو حتى أستاذهما عبد الرحمن شكرى . . أما مدرسة أبولو ، فلا أجد فى قصائد رائدها أحمد زكى أبو شادى حاجتى . . صحيح أن لديه من الصور والأخيلة ما يشوقنى .. ولـكنى أجد الصورة والموسيقى ، مضافا إليهما روح الشعر ، فى القصائد القليلة ، التى قرأتها للهمشرى والتجانى يوسف بشير ، إنهما ويليهما إبراهيم ناجى ، والصيرفى ، وصالح جودت ، ومحمود حسن إسماعيل ، هم الشعراء .. »

وعلى صفحات الأعداد القديمة ، التى عثر عليها من مجلات « ابولو » و « الامام » و «المقتطف» و «اللطائف المصورة»

و « المجلة الجديدة » التقى بجبران خليل جبران ونسيب عريضه ، وفوزى المعلوف ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمة ، ونعمة قازان ..

« إن النكهة التى أحسها فى فمى عقب قراءة قصائد الشعراء المهجريين تحيرنى .. هل هى نكهة الجديد . هل هى امتزاج الجديد حقا بالقديم .. »

« التأملات الفلسفية العميقة لجبران على وجه الخصوص .. إن كتابه النبى يجعلنى أحس بتقارب شديد بين أفكاره وأفكار نيتشة فى « هكذا قال زرادشت » .. ربما كان جبران أكثر إنسانية ، وأصفى شاعرية أيضا .. إنه غريب وحزين ومنكسر القلب مثلى . صورته التى رسمها لنفسه توحى بذلك .. ما أعظم أن يكون الإنسان شاعراً ورساما فى وقت واحد .. »

وتوقف طويلا عند جبران فى « العواصف » و « الأجنحة المتكسرة » وحين وقعت فى يده قصيدته الطويلة « المواكب » فرح كالأطفال ، وضمها إلى صدره ، وأخذ يتعبدها فى خشوع.

« قد يأتى اليوم الذى أصبح فيه شاعراً ذا فلسفة ، ووجهة نظر فى الكون ، وفى الحياة مثله .. جبران ذلك النبى الضائع ، إن حبى له لا يعادله حبى لنعمة قازان » .

لمـاذا يا ترى ؟ هل لأن جبران كان مسيحا يتعاطف مع المساكين والعبيد والضعفاء ؟ وهو يحس أنه واحد من هؤلاء ..

وكتب فى مذكراته أيضا : « لقد عثرت اليوم على شاعر فرنسى ، اسمه بودلير ، طاش له صوابى . . قدرته غير عادية خلق الصور ، وتجسيد الرموز ، وتكثيف الحقائق والأوضاع اللامتناسقة فنياً .. إنه ينفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر .. الأروع من كل ذلك أنه كان يحب جارية سوداء اسمها جان ديفال .. شاعر أبيض يحطم الفوارق بطريقته الخاصة . . سيان كان من أجل الجسد ، أو من أجل الشعر . . إن شارل بودلير يقترب منى أكثر فأكثر ، كلما تغلغلت فى ديوانه أزهار الشر » . . إننى أنتمى إلى بودلير بصلة ما . . »

وفى عام ١٩٤٨ ، كتب أول قصائده انطلاقا من الخط النفسى ، الذى قدر عليه أن يكون خطاً فكريا يترسمه فيما بعد ، وأن يمضى فيه طويلا ، وأن يكون اتجاها ومساراً له . . كتب « إلى وجه أبيض » .

الآن وجهى أسود . .

ولأن وجهك أبيض . .

سميتنى عبـــدا ! ! .

وتنهد مرتاحا لأول مرة ، فقد كان عبثا كل ما كتبه قبل ذلك ، ما نشر منه وما لم ينشر . . كل ما كتبه قبل ذلك ، كان إجهاضاً لميلاد تجربته الإنسانية الحقيقية ، التى يريد أن يتغنى بها ، وأن يعلنها على الجميـع . .

« أريد أن أكون صادقا مع نفسى أولا . . وأن يكون ما أكتبه هو ما أحسه . . غير أنى أطمح إلى أن أتعرف على الوجه الآخر لشقائى .. ولا تحسبوا أننى وحدى فى الملايين »

« ذات مرة التقيت فى الخرطوم ، بأحد مواطنىّ ، ولم أكن قد رأيته من قبل ، وليست لى به سابق معرفة ، أنا لا أذكر اسمه الآن . . وحين قدمنى باسمى إليه صديقى الفنان عثمان وقيع الله أدهشنى بثورته المفاجئة ، فى وجهى !. قال كلاما كثيراً ما تزال تطن فى أذنى منه هذه الجملة :

— ما هذا الشعر الذى تكتبه يا أخى . . لقد فضحتنا . . إنى أكرهك . .

« لقد أردت بالفعل أن أفضح واقعنا الأسود ، ولن أسمح لنفسى بتزييف هذا الواقع . .

وكان قد أصدر ديوانه الأول « أغانى أفريقيا » .

« إن محمود أمين العالم ، أكثرهم جدية ، وإحساساً بمسئولية الناقد . . إننى أحمل له قدراً كبيراً من المحبة والتقدير ، غير أننى أثق تماما ، فى خطأ موقفه من هذا الاتجاه الشعرى الجديد الذى تبلورت ملامحه فى ديوانى « أغانى أفريقيا » . . هل الخطأ فى الموقف ، أم أن الخطا فى التفسير ؟ فى النظرية أم فى التطبيق ؟

« قلت له ، وأنا أناقشه فى مجلة « الآدابَ » إنك لاتستطيع أن تتعمق مأساتى .. لأنك لا تستطيع أن تعيش تجربتى ..

«قال لى ، إنها مأساتك الخاصة ، تسقطها على قارة بأكملها على أفريقيا . . إنك شاعر مريض . .

« قلت له ، المرضى كثيرون ، وأنا واحد منهم . . كلهم يعانون مثلى . . أقصد كلنا . . ثق فيما أقول . . وأنا أريد فى — هذه المرحلة من شعرى — أن أتطهر من مرضى . . بأن أبوح به . . لقد جرؤت على أن أكسر الصدفة من الداخل ، ولذلك تجدنى أغنى مبتهجاً بمادة حزنى :

قلها .. لا تجبن .. لا تجبن ..
قلها فى وجه البشرية
أنا زنجى .. وأبى زنجى الجد .. وأمى زنجية
أنا أســود .. أســود ..
لكنى حر أمتلك الحرية ..

« قال لى : إنك تمزق القضية ، وتمزق الطبقة ، وتمزق الكتلة الجماهيرية الواحدة ، بدعواك إن هناك قضية منفصلة للسود .. إن العامل الأبيض والعامل الأسود ، ينوءان معا ، تحت عبء تاريخى واجتماعى واحد ، هو عبء الرأسمالى الأبيض والرأسمالى الأسود .. عبء الاستعمار والاستغلال .. فالقضية إذن ليست قضية أسود وأبيض ، إنها قضية مستغل ومستغل.. » .

قلت له ، هذا حق .. وحق أيضاً هذه الوارثات والخصائص النفسية والفسيولوجية .. هذه الأحاسيس والانفعالات الملتوية التى انحدرت إلينا مع عذابات التاريخ .. إن بصمات عهد العبودية تركت آثارها على الأرواح أيضاً ، وليس فقط على الأجساد .

وعلى الرغم من كثرة المتكلمين ، فقد ظل صوت محمود أمين العالم ، أعلى الأصوات ، وأعمقها فى وجدانه ..

« لم تكتمل بعد أداتى الشعرية ، التى ينبغى أن تكون لى ، حتى أواجه تجربتى . . ولا تزال رؤيتى الخاصة العامة ، للعالم ، باهتة بعض الشىء . . ، محدودة بعض الشىء ، خرساء بعض الشىء . . أريد أن أرى العالم بعيون حادة ، تستطيع أن ترصد ظواهره ، وأن تتفحص خلاياه ، وأن تسجل كل ما فيه من تناقض وتضاد واختلال . . فكذلك كان يراه أولئك الذين أنا منهم . .

ما لم أر بحواسى كلها ، فأنا ما زلت أخرس : .

« موسيقاى الشعرية ، فى صخبها وعنفها ، ليست شيئاً منفصلا عن كيانى ، فقد ورثت إيقاعات الطبول ، وارتجافات الدفوف ودقات النحاس . . من الذى يطلب منى أن أكون غير ما أنا عليه ؟ »

منذ قرابة خمسة عشر عاما ، لم تكن فى أفريقيا كلها ، دولة واحدة مستقلة ، كانت شعوبا عظيمة نائمة ، وكنت أتصور أنى أتحدث إليها جميعاً . . للعرايا الجياع الحفاة الجامدين الذين يضطجعون على شواطىء الأنهار ، وفى الأكواخ القذرة ، وفى المستنقعات الملوثة .

كيف كان يمكن أن يصل إليهم صوتى ؟ !

ومع ذلك فلم أكن أبداً وحدى . . هنالك سيزار ، وسنغور ، وديفيد ديوب .. وهم يكتبون أشعارهم باللغة الفرنسية.. سارتر يتحدث عنهم معجباً بثورتهم وتمردهم وتحطيمهم لتقاليد وقوانين لغته المتحضرة . . « إنهم حولوا الكلمة الأوربية ، إلى كلمة إفريقية » .

هل لأنى أكتب باللغة العربية ، يجب أن أنفصل عن تراثى.. عن ذاتى . . إننى لا أشعر ولا أؤمن بوجود أى تناقض بين أسلوبى كعربى ، ورؤيتى كزنجى . . بين موقفى ونضالى . . لأكن جسراً بين إنسانين ، كلاهما منجذب إلى مستقبل واحد .

« لا ليس هناك أدنى فارق ، بين الإيقاع والشكل ، بين الرمز والصورة ، بين الروح والمادة ، إن العلاقة بينهما هى علاقة الظل بالجسد . . ولن تكون الكلمة شعرية ، وذات فعالية ، ما لم تستمد قوتها من اتحاد هذين العنصرين . . الاتحاد الذى لا انفصام له . . ومن هنا ، فإنه لا جديد وقديم فى الشعر . . الجديد هو الرؤية الإنسانية الجديدة ، للواقع الاجتماعى المتغير . .

« كم من مرة اكتشفت الزيف والضحالة والموت ، متخفيا وراء شكل جديد ، شديد اللمعان . . وراء الصورة الملفقة . والإحساس المفتعل ، والنغمة النشاز . . وأحيانا وراء التجربة ذاتها ، ووراء الشاعر ذاته . .

فى مفهوم النضال الإنسانى ، يقول لينين ، إن الثورة ليست لعبة . . وأقول إن الشعر ليس لعبة . . تكون شاعراً أو لا تكون . .

« الوعى بحقيقة الأوضاع الاجتماعية ، وإدراك التناقضات التى تتفاعل داخل المجتمع الإنسانى ، والمؤثرات والعوامل التى تحرك التاريخ ، ثقافة ضرورية ، لا بد منها للشاعر المعاصر . . إنه بغيرها يعزل نفسه ، عن حركة الحياة . وكثير من الشعراء ماتوا ، لأنهم ظلوا داخل قواقعهم الذاتية . . ماتوا لأنهم ظلوا بعيدا عن الشمس والهواء .

والقليلون هم الذين تحققت لديهم هذه الأهداف ناظم حكمت واحد من هذا القليل . .

فى الترجمة الرائعة ، التى قام بها الدكتور على سعد ، لأشعار ناظم ، وضعنا أيدينا بورع ، على قلب الشاعر الإنسانى العظيم ، النابض بالحب ، والنضال ، والروعة .

يصفو ، ويعمق ، ويزداد حدة ، ويضرب فى أعماق الحياة والتاريخ ، ويصبح شعراً حقيقياً ، وخلقاً فنياً رفيعاً ، صوت المناضل الثورى ، كما انطلق إلينا ، فى قصائده « تارانتا بابو » والكتاب ذو الغلاف القديم ، ورسائله إلى زوجته ..

لم أقرأ شعراً اشتراكياً ، فى مثل هذا المستوى الفنى ، من قبل ولا من بعد ..

ليست النماذج والأفكار الرجعية فقط التى ننتقدها ونرفضها وندينها ، بل أيضاً النماذج والأفكار الدعائية ، التى يتجرد فيها الشعر ، من جوهر الشعر .

إذا لم تتوفر للشعر عناصره ، فالمقالات السياسية المباشرة ، تكفى لتأدية هذا الدور .

فى السنوات الأخيرة ، أدركتنى أزمة عنيفة ، أسكتتنى عن كتابة الشعر ، وقد عرض لها صديقى رجاء النقاش ، فى دراسة تفصيلية له ، سبق أن نشرتها « الآداب » .

لقد بكيت وأنا أقرؤها ، كان رجاء قد لمس أوتارا حزينة فى نفسى .. ارتكز إلى بعض النقاط الصحيحة ، لأزمتى الفكرية والفنية والنفسية حينذاك ..

أعتقد أن الشعر يولد فى الصمت ، ويموت بالصمت .. يتنفس فى الجماعة ، ويختنق بالعزلة .. الشعر مخلوق اجتماعى لا يعيش فى مناخ نفسى ، ملىء بالثقوب والفراغات .

وفى السنوات الأخيرة ، كان لابد لى من زلزال ، يحدث شرخاً عميقاً ، فى الجدار الذى انتصب . ما بين نفسى ، و بين الشعر .. ووقع الزلزال !

محمد الفيتورى

١٩٦٦/١/١

أغنية حول الشمس

الخيل تركض . .
السحاب يركض
الرياح فوق أمواج الغيوم مسرعه
الخيل بانفعالهـا ، بشوقها مقنعه
يرتطم الحافر بالحافر
تلتقي الرؤس بالرؤوس
تحت سروج الخيل تولد النجوم والشموس

اللجم المذهبات
والعمائم البيضاء
والرايات
والطبول ، والبوقات

* * *

ياوطنى
عباءة الناصر من ورائه
مظلة على الأفق
وسيفه المهند الصقيل
فى لون الشفق
وجبهة الناصر ، صانع البطولات
تـكاد لا ترى من العرق
وددت لو قبَّلت تلك الجبهة السمراء
فهى سحابة ترش الأرض بالنمـاء

وهى حمامة بيضاء
طارت ألف ميل
وهى هى العودة بعد وحشة الرحيل
وهى الوصية التى أوصى بهـا
جيل النبيين لهذا الجيل

* * *

يا وطنى
ها هو ذا الناصر عاد
المجد والجلال فى ركابه يسير
والفرح الـكبير
والحب ، والضياء ، والزهور
يا أيهـا الثوار
يا أيهـا الأحـرار
يا من وقفتم وحـــدة

في وجـــه الاستعمار

يا من تحـديتم قوى الظلام والدمار

يا من تعيشون جلال هذا العصر

عصرنا العظيم

يا من غسلتم عن جبين الشرق

عاره القـــديم

طوبى لـكم

طوبى لـكم فارسكم مغوار

أدار وجـه الشمس فاستـدار

وعلَّق النجوم والأقمـار

على طريق الليل والنهـار

* * *

يا فرسي العرجاء

أسرعي الخطى

فالشمس فى السماء
والركب يدوس الأضرحـه
يا فرسى العرجاء
أسرعى الخطى
ليتك ذات أجنحه

١٩٦٤



الناقوس

نار ضحايانا

تسيل فى حنايانا

فلنتكىء حيناً على عظام موتانا

ولنصمت الآنا

* * *

— ٢ —

برج كنيسة قديمة ، وراهب قلق

وغيمة تحك فخذيها ، وتعبر الأفق
ورجل بلا عنق
وامرأة على الرصيف تنزلق
وقطة فى أسفل السلم تختنق
وصوت ناقوس يدق
يرسم نصف دورة على الفضاء
ويدق !

* * *

— ٣ —

عجائز الطيور
والمومياوات شواهد القبور
تشد شعرها الرمادى على الجسور
وتحرق البخور
وتلعن الزمن

هـذا زحام من ؟

تبعتهُ ، سقطت ميتاً ، أدركني الوهن

لمن إذن ؟

ياعالم الخطـاة والمهرجين

مشت النار على الأرض

لمن ؟

* * *

— ٤ —

يا للهوان

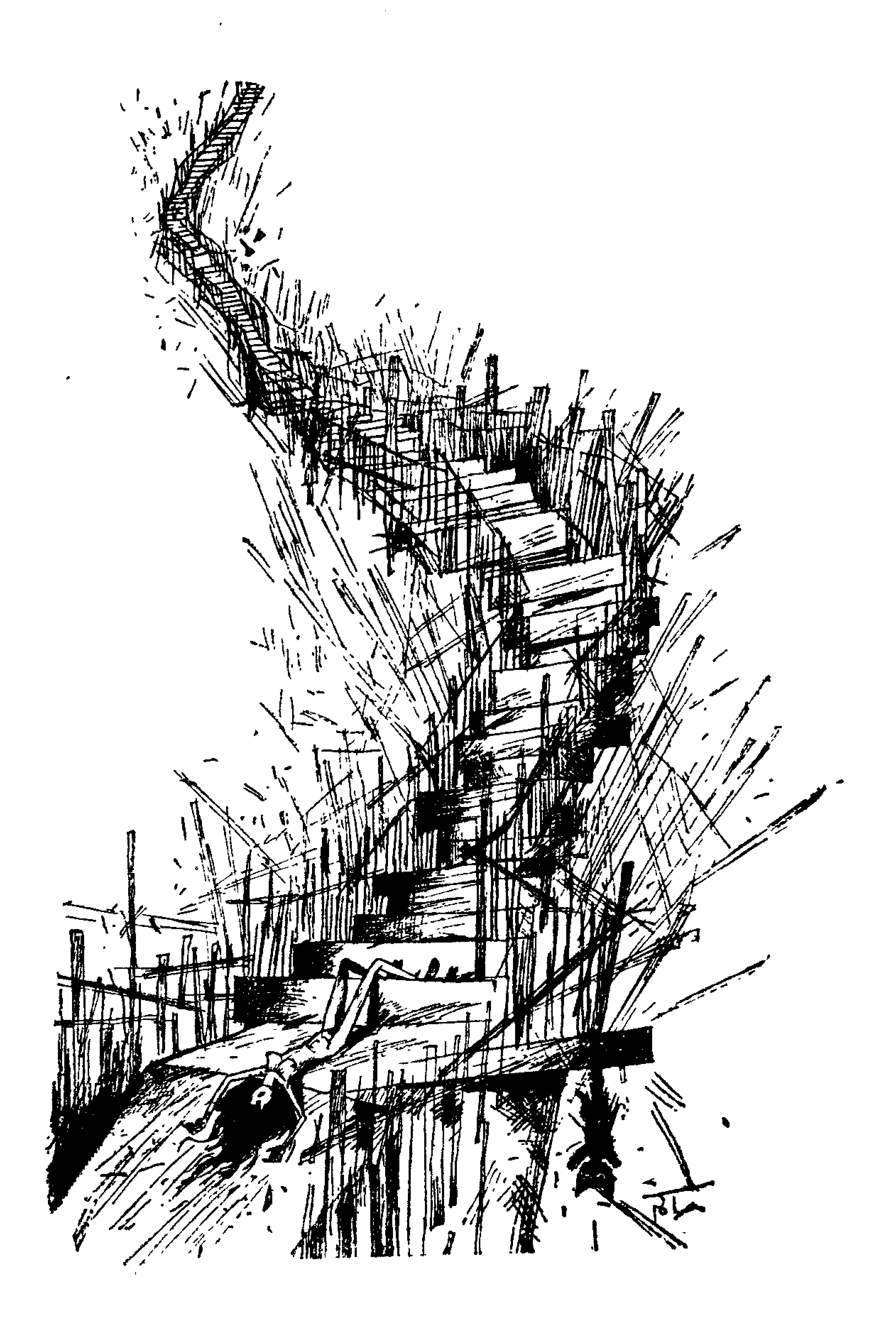
لا يزال الزيف سيد الألوان

والشعراء

الأنبيـاء

غرباء

يجردون الضحكا



من البكا
وينسجون حلم العنقاء
بينما العروش والأوثان
تجرفها مكنسة الزمان
وقيصر القديم
صنم الأصنام
والسلطان
خادم الاسلام
أغلق باب قبره
ونام

١٩٦٥

البنفسجات الثلاث

لو فجأة تدفق الياقوت

يا أميرتي السوداء

لو تضرم السكوت

لو تعرجت حوائط البيوت

لو رأيت شاعراً يموت

جثته طريحة

وقلبه حمامة ذبيحة

ودمه على الثرى عباءة حمراء

تنقرها الغربان والسلاحف الحدباء

فما الذى كنت ستصنعين !

ما الذى كنت ستصنعين ؟

تنتزعين زينة العرس

وتلبسين زينة الحداد

وتندبين !

وربما بصقت نقمة على الجلاد

لأنه أسكت صوت شاعرك

أسكت صوت رجلك

وربما ستذكرين مقلتيه كيف كانتا

وتشهقين يا أميرتى

لكن إلى متى ؟

* * *

أولُ عشاقِكِ ؟
جاءَ بعد ما ذهبَتْ
رأيتِه يمشي على قبري فابتسمتْ
فغرت فاهي
يده تنام في يدك
ثم مضيتما تقهقهان
وتركضان
يا إلهي
اتئــدي
هذا رفات جســدي
يوجعني كل رفات جسدي
أزهرت البنفسجات السود في يدي
العقم والظـلام والصقيـع
فلتتمدد الجذوع

إن وراء هذه اللحود
مسافراً على قطار لن يعود
أواه . . يا أميرتى الحزينه
لضعفنا نحن رسوم الزينه
الأصص . . الزخارف . .
الساعة فى واجهة المدينه

* * *

بداية الرواية الألم
خاتمة الرواية الألم
أكذوبة هى الرواية
أكذوبة هو الألم

١٩٦٥

قـــارع الطبول !

من ذلك الوادى الرَّمَادىِّ أنا

لو انحدرتِ فى الصخور مرتين

وارتطمت فى الضباب مرتين

ثم درت دورتين

خلف ذاك المنحنى

فسوف تلمسين سقف أفقى

وتبصرين من بعيد زورق

وبضع نخلات يحرّكن رؤوسهنّ
كأن حلما مفزعاً يمرُّ فى خيالهن
كأنّما تنفُضُهنّ
رؤية بيرقى
يعوم فى بحيرة من عرقى !

* * *

عاريةٌ روحى ، وعار جسدى
كما ترين !
ساذج منبسط اليدين
لا أخجل أن أقول :
« يا زمنى حتى الأسى شهوه »
وقدماى تتلويان فى الهوه
لا أرهب أن أقول :
« يا زمنى تآكلت حوافر الخيول »

والحوت فى النهر يعرّى ظهره للشمس
والزراف يستريح فى السهول
رائعٌ هذا الدجى الأخضر
رائعٌ صفاء الظلمة الجميل
رائعةٌ رائحةُ الضباب والشجر
رائحةُ الجبال والمطر
رائحةُ السماء والنجوم
رائحة الأرض إذا تنفّست
وهى تعانق الغيوم
رائعة عيناك يا حبيبتى
أجنحة محلقاتٌ أبدا
يبرق فيهن الشعاع والندا
قوافل مسافرات أبدا
يبعُدن لا يتركن من ورائهن

إلا ظلالا وصدى

رائعةٌ هموم عينيك الصغيرتين

حين تسألان من يكون ؟

ذلك الشاعر . . من يكون ؟

ذلك المغنى الهمجى

ذلك المهرج الحزين

ذلك الذى يصبغه الجلال والذهول

كلما انحنى على جراحه

وراح يقرع الطبول

* * *

ها أناذا أقول :

« لو ركضت عاريا فهذا قدرى

ولو مشيت فوق جسر من خطاياى

فهذا قدرى

صوتى صوت زمنى

وجهى وجه قدرى

فلا عجبْ

ولدت فوق عتبات الصمت والغضب

أنا تمرُّد التعب

أنا تجسد الذهول

ها أناذا أقول . . .

١٩٦٥



.. ذو السيف المكسور

لأن طائر الزمان دار حولها وجفّ
وصدأ الأسى القديم التفّ
حول شجر الحنـاء
لأن فارسا من الزجاج والصدف
مرّغ ظله على الأشياء
وجرّد العرش من الحرير والطلاء
لأن طاحونة ميت حزين الخيلاء

تدور فى الهواء

جلستُ تحت هذه الأعمدة السوداء

ممزق الراية والرداء

* * *

خلا الممر . .

غير فارسى أنا

تلطم وجهه الرياح ، وهو لا يعى

أقعى ، وأقعيت أسىً

كأنما أسمع أمواتا يغنُّون معى

تشبهنى وجوه موتاى النحاسية

فى عذابها

وهى على أبوابها

تغوص فى اضطرابها

تشبهنى قوائم العرش الذى احترق !

والسلم الذى تدلىّ
فى الدجى ، حتى غرِق

* * *

لا . . لن أغادر الممر
طبول موتاى تدوى فى دمائى
لا مفر
مخالب الشمس تشق جسد الغابه
والشجر العجوز بوّابه
مفتوحة على النهر
وفارسى الذى كسا الضباب مقلتيه
ما زال فى يديه
بقية السيف الإلهى الذى انكسر

١٩٦٥

البحار العجوز

الريح تنفخ القلاع ، والسفن
معلقات فى البحار
والشمس ، والنجوم ، والأمطار
تنقب خيمة الزمن !

* * *

لو لفتت وجوهها إلى الوراء
السفن الكُثْر التى يحملها الهواء

لأبصرت فوق مرايا الأفق الزرقاء
بحارها العجوز ، تحت راية الميناء
قبعة شوهاء
وقدم غائصة فى الماء
ومقلة تبحث عن وطن
وضحكة باردة صفراء
كأنها كفن !

* * *

زماننا ضاع . . وضاعت البحار
وضاعت الأصداف فى المحار
ولو كرهناه ، فهذا زمن الذين بعدنا
أتى كما أتوا على تراب مجدنا
وقد زرعناه جفاء . .
فليكن حصادنا جفا

لو أننا كُنَّا زرعناه صفاء ، لصفا

ويسعل العجوز سعلتين

ثم ينحنى على غليونه الذى انطفا

يحشوه سخطاوأسًى وأسفا

ويرمق الميناء فى انكسار :

— كانت قلاعنا تسابق التيار

ليلةَ حرٍّ كنا المجاذيف إلى ميناء

كانت رياح الشرق تلصق الغيوم

فى الفضاء

كنا ندحرج المراسى الثقيلة الصّماء

واضطرب النداء

يا أيها البحارة اهبطوا . .

كيف ظننتم ليلة كهذه تمضى سُدَى

موعدنا الفجر إذا السكارى استيقظوا غدا



وانكسرت على بلاط الصمت قهقهاتنا
وقفزت إلى الرؤوس قبّعاتنا
وجرّرنا المعاطف الشتوية السوداء
وانزلقت ظلالنا فوق شوارع المساء
لم تُغلق مزلاج بابك القديم جيدا
إنا وجدناه مواربا
يمدُّ كفه على استحياء .
كان كشحاذي القرى
أيتها المدينة الحسناء
قد لا يروقنا هدوؤك الجميل . .
فاسمحي لنا
بليلة واحدة من الضوضاء
وأشعلي جميع حاناتك
لا لوم علينا أبدا

ألقت بنا الرائحة الوحشية الحمراء
والعرق الذى يسيل فى اشتهاء
على الحوائط الملساء
كنت تخبئين كل هذه الروعة
عن عيوننا . . أين ؟
عليك لعنة السماء
يا فاكهة الشتاء

* * *

ويضحك العجوز من خلال دمعتين
وينفض الغليون نفضتين :
— وحين جعّد المساء وجهه . .
وصفّق النورس فى حديقة النهار
كنا نعلق المصابيح على نوافذ البحار
والأرض ما تزال فى دوار

والذين قدموا من بعدنا
سيصبحون مثلنـا
نحن الذين عبروا البحار
دونمـا متاع
حتى رسونا فجأة
على موانىء الضياع
آلهة البحار صارت جيفا
وآ أسفـا
وآ أسفـا
ويُبْحِرون مثلنا
ثم يعودون اذا ما اصفّرت الأزهار
ولن يطول الانتظـار
ويضرسون كلمـا قيل الوداع
ويعرفون غصة الشجن

وغربة الوطن

ونظرة الوداع

* * *

ما لم يغيروا الزمن

ما لم يمزقوا القلاع

١٩٦٤



عن الشعر والكلمات الميتة !

إن الـكلمات الميته ، كالأشجار الميته

دون ظلالْ . .

تعبرَنا حين تقُال . .

الـكلماتُ الميته

كنباتات الشطآن الصخرية زلقه

تتسلقنا بيد الشفقه

بالضحكات المرهْ ؟

بالحزن المر

بالاحساس العارى

من روح الشعر !

— ٢ —

عن موت الكلمه

قال الشاعر ، كيف تموت الكلمه ؟

جلد الأفعى الجبلية يلعقنى . .

يتمسح بى . .

أحرقت بخورى للأفعى الجبلية

ما زالت تتمسح بى

إنى والأفعى أوشك أن أنسى أنى . .

أستغرق ليل نهار

ما شأنى أن تسود النار

أن يسقط ظل فوق جدار

أو لسنا أحرارا ، فيما نختار

وأنا لا أنسى . . لا أقوى

قال الشاعر

والأفعى تحلم ثانية أن تلعقنى

والدهليز الرطب يغنى

يحشو نارجيلته ، ثم يظل يغنى . .

أنا فارسها . .

أنا سيدها الأول

أعطتنى كل هدايا موسمها الأول

ثم اخضرت أشجار الصيف

الفاكهة الخضراء ،

احمرّت بعد هبوط الصيف

لا بأس فقد قضينا بعض الوقت

ما جدوى أن نتسلق سور الصمت

أنا قد ثرثرتُ فعذرا . .
قال الشاعرُ . .
ألهتنى تلك المرأةُ . .
ألستنى . . فنسيتُ
كنا نتحدثُ عن كيفَ الـكلماتُ تموتْ

— ٣ —

عينانِ على أرضِ الشارعْ
عينانِ تضيئانِ الشارعْ
عينان على قدمينْ
الرأسُ على أربعْ
المجدُ على قدمينْ
العارُ على أربعْ
قال الشاعر :
— كيفَ الـكلماتُ تموتْ . .

وسار على أربع
زلقت فى عينيه قدما طفلٍ ضائع
لا تخجلْ يا عصرى الرائع
فعلى أرضِ الشارع
أطفالك . .
مازالت كفُّ الطفلِ الضائع
تتمرغُ فى جسدِه
الأسمال الصفراء
تعرّت عن جسدِه
الطفلُ يحاولُ يخفى
عورته بيده !
الطفل يحاول أن يخفى عورة بلدِه
ذاك الطفل الرائع
يتلفت فى خزى مهموم . .
يتعثر ، ثم يقوم

قال الشاعر، كيف الكلمات تموت
وتذكر في زهوٍ فاجع
وجه الأنثى الأولى
وازدادت قامتُه طولا
وتناسى وجه الطفل الشحاذِ المرسوم
في أسفلت الشارع

— ٤ —

قلب الدنيا يتنفس من رئتى باريس
أحلى أشعارى
ما غنيتُ به باريس
«أوربا» تحملنى في عينيها
أما باريس فتُرضعنى من ثديَيها
لا أكذبكم أنى أهوى باريس

* * *

الشرطى النعسان يمط ذراعيه . .

يتلصص خلف زجاج الحان

كلب الشرطى يحدّق

فى لون الحيطان

وعلى باريس المخمورة

ثلج ودخان

وأنا وفتاتى البوهيمية . .

ملتصقان . .

الفجر الأحمر يفرك عينيه

وأنا عريان

أتسكع كالصعلوك

على قدمى باريس

لا أكذبكم ، قال الشاعر

فى هذا الشرق ، الشاعر يصبح كالقديس

وتقولون الـكلمات تموت
ماذا يبقى للناس إذن
لو ماتت كلمـات الشعراء
« الشاعر زنجى من إفريقيا السوداء »

— ٥ —

حيث موانئ الرياح والسحب
وحيث تهبط السماء عن كثب
وحيث يولد الجلال والغضب
وحيث يركض التعب
والحوت والزراف والذهب
حيث نوافذ الغيوم مشرعه
العرش كان مزرعه
والتاج والاكليل كان نصف قبّعه
بالية ، بادية الصدا ، مبقّعه

تخفى حريق الشمس الاستوائيه

عن وجنتى حسناء زنجيه

مليكة فى الغاب منسيه

نحيلة كالقوس محنيه

تقول فى مزارع الكاكاو والقصب

كأنما تعاتب السحب الرماديه :

« ليس لأننا ارتضيناه

حين احتضناه

خلف مآقينا

لكن لأنه لما يزل فينا

يعيش فى رجع سواقينا

فى دمنا ، وفى أيادينا

فى رقصنا ، وفى أغانينا »

الحزن ما سال به صوت مغنّينا »

— بعضِ الــكلمات

قديمــا قال الشاعر

مثل سحائبِ صيفٍ

بعضُ الــكلماتْ

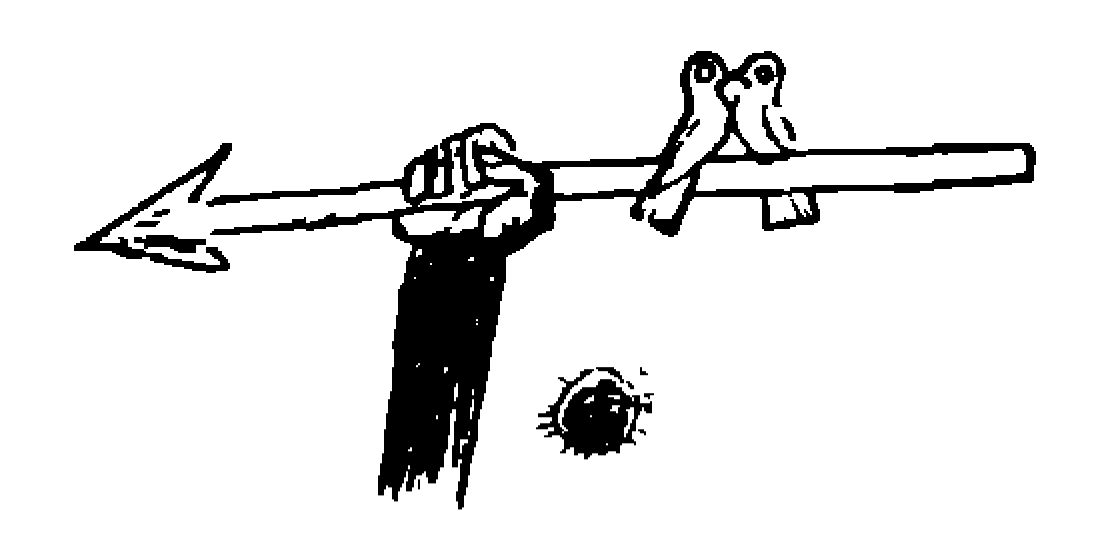
لصوص تحتَ الليلِ مُبطنة الأقدامْ

فاحذر أن يجرى فى كلماتك

ماءُ الزيفْ

كى لا تمشى فيهــا الأقــدام

١٩٦٤



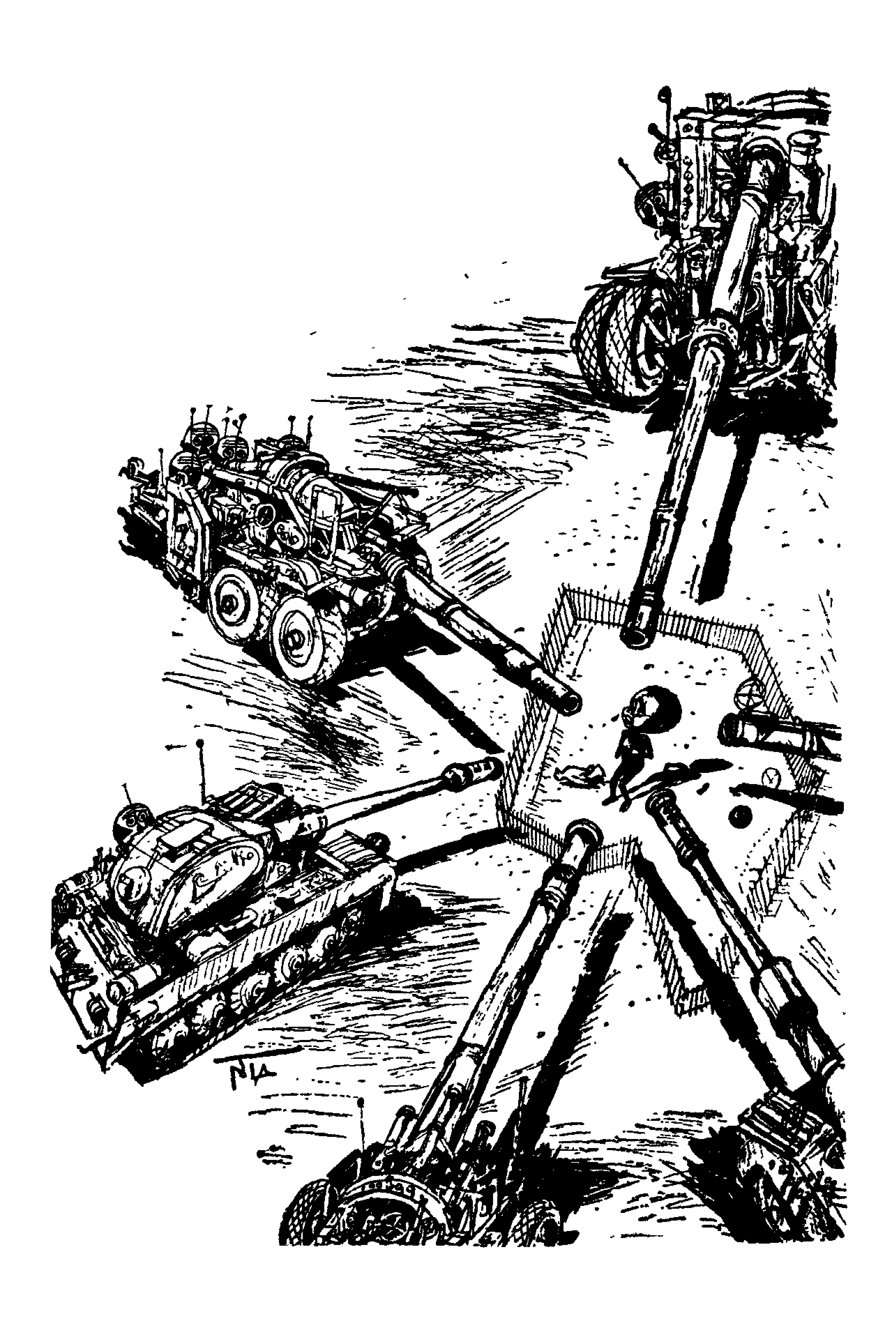
رسالة إلى الخرطوم

فى الأرض حيران ضائع
دامٍ كثير المواجع
أرنو إليك . . وأعدو
كالطفل فى كل شارع
وأرتمى فوق حزنى
وفوق شوك المضاجع
وبيننا يا بلادى . .

ستارة من مدامع
وصورة يا بلادى . .
قد لونتها المفاجع
وحائط يا بلادى . .
من فوهات المدافع

* * *

دمع وأفق ونار
والموت عريان جائع
والشعب أعزل . .
شعبي هذا الجريح المصارع
رأيته وهو صدر عارٍ
يســد الشوارع
يمشى . . وتمشى الضحايا
أمامه والطـلائع



عمائم ووجوهٌ

كأنها الفجر ساطع

وأذرع كالصوارى

كمئذنات الجوامع

تلتف حول المصانع

تمتدُ حول المزارع

تصون عزة شعب

طالت عليه الفجائع

بالأمس . . أمس وقلبى

بردان خلف الأضالع

رأيت شعبى يغنى

للشمس أحلى المقاطع

والشمس فى غسق الليـل

فى رؤوس الأصابع

رأيتكم يا حبيبى
رغم الفيافى الشواسع
سمعتكم يا حبيبى
ولم أزل بعد سامع

* * *

قالوا انتفضت . .
ومزقت عنك سود البراقع
قالوا تفجرت أفقا
من السيوف القواطع
قالوا وطهرت نعليك
من جلود الضفادع
قالوا ومازلت تبنى
العلا . : وتبنى الروائع
قالوا . . وتوّجتُ رأسى

زهواً بما أنت صانع
وقلت ما كان شعبي
للبطش يوماً براكع
ولم يكن مجد شعبي
لمشترٍ أو لبائع
فالشعب كالأفق
فى صدره تنام الزوابع
والشعب كالنيل . .
فى عمقه انفعال المنابع
راح الطغاة المساكين
وانتهوا فى المخادع
والشعب ما زال يمشى
ويسترد المواقع

٢٤ ـ ١٠ ـ ١٩٦٤

ستانلی ڤیل

فى استانلى ڤيل دخان
والشمس على الحيطان
والسيف التاريخى ، وقبعة القرصان
ودم الإنسان.
ما زال دم الإنسان
الزنجى العريان
فى عروة أوربا المومس نيشان

فى شعر بغاياها
عطر ودهان

* * *

يا استانلى فيل
سقط الإنجيل
فى أقدام الفاشيست
لصوص الغيــل..
سقطت رايات الجيل
ووقفت لهم فى كل سبيل
تتلقين الطوفان
ولومومبا ما بين يديك قتيل
وتردّين أساطيل
وتهدين تماثيل
وتدوسين أباطيل

يالؤلؤة « الـكنغو » يا استانلى فيل
الظل ثقيل
الظل بطيء الخطوة ..
يستلقى تحت الجدران
الظل الأبيض ، والظل الأسود
ظل الخلجان المرجانية والوديان
وحبال السفن المشدودات
إلى الشطآن
وجنازير النّخاس
وكرباج السّجان
والجارية الحبشية ، والسلطان
وأباريق الخصيان
والغابة والصلبان

* * *

يا استانلي ڤيل
سأنزع عن كتفي السوط
وأمسح عن شفتي الدم
وسأحلم عبر زمان تشومبي
عبر الجثة والمجرم
كمياه الكنغو بين الشطين
سأحلم
وكصياد مفقوء العينين
سأحلم
مثل امرأة طعنت في الثديين
سأحلم
مثل المطاط غليظ الكفين
سأحلم
أن اسم مدينة لومومبا

يوما قد كان

استانلى ڤيل

ثم اشتعل البستان

وتلاشى اسم القرصان

ومشى فى أحجار المنجم

عرق الـكنغو الغضبان

١٩٦٤



الغريب

من يا ترى تكون ؟

تسكب الدهشة فى عيونى رؤيتك

تجذبنى هيئتك المضطربه

عيونك الصغيرة المدببه

قامتك الطويلة المكتئبه

حذاؤك القديم الباهت اللون ..

خطاك المتعبه

وربطة العنق بلا اعتناء
كأنها سنبلة خضراء
تلتف حول الرقبة

* * *

من يا ترى تكون ؟
شمس الاستواء
أحرقت جبينك النبيل
ألقت فوق وجنتيك
لونها الجميل
نضارة الكاكاو ، والزيتون ، والنخيل
أيها الغريب
ربما تعثرت على الصخور
ألف مرة حتى عييت
ربما مددت كفيك

لبئر عقمت أنداؤه ، فما سُقيت
ربما سقطت فى عاصفة من الثلوج
ربمـا مضيت تسأل البحار
النازحات ، والقفار
عن منـــار
عن خليـج
ربمــا لم تلق يوماً مضجعك
يا رائع الغربة
لا . . لا تقل ما أضيعك
إننا شبيهان .. فقف
قف لحظة
قلبي معك

* * *

الناس يولدون أغرابا

وحين تلتقى الغربة بالغربة

فى طريق

يولد طفل الحب والمعرفه

أجمل منه، لم تشاهد قط عينان

لأن أطفال الحياة حين يولدون

يخضوضرون لحظة . .

وينضجون، ثم يسقطون

فى قبضة العاصفه

لكن طفل المعرفه

يخضر أشجارا على طول الطريق

ثرثرة بورجوازية

— ١ —

الآلهة الغرقى في العطر

تقهقه فى الردهات

الآلهة المتـكبرة القسمات

الآلهة الأموات

تقلب أعينها الشهوانية :

ـ مطر وضباب ثلجى

في الخارج ، والعربات

تتلوى فى وحل الطرقات

من أين ترى ينسل البرد هنا ؟

فالقفازات حرير

والفرو يكاد يطير

والمـانيكير . .

وتمط الدهشة أوجهن المصبوغة

ويسيل المانيكير

والريح تولول جائعة في الخارج

عـبر السور

ورخام الحيطان المنقوشة بالذهب

المضفور

كنست عكازة أعمى كان يسير

فتوقف حيناً ، ثم تخبط فى الظلمات

— ٢ —

والنسوة تحت عناقيد الضوء النعسان

يغزلن حكاياهن

ويستنزفن التنهيدات :

— ما زالت كلبة « لولو »

ماضية فى الصوم

لم تبرح غرفتها المسكينة

طول اليوم

لم تعرف طعم النوم

يا لجبال الأحزان . .

ويروح رماد السيجاره

يجرى فى طيات الفستان

وتعود الأنثى الثرثارة :

— هاقد سكرت تلك الجاره

تبدو فى وقفتها كالأفعى المنهزمة

كبقايا عاشقة هرمه

قالوا إن الطاهى قد غرر بابنتها

واللوم على ابنتها

فالطاهى لم يصنع شيئاً ..

سرق التفاحة من قلب البستان

.. وضحكن ..

ومرّت سيدة القصر العالى

فتبادلن الغمزات ..

ومددن أصابعهن إلى أحد الأركان

— يا سيدتى

لو تسعفنى الكلمات

وأحنى قامته ، وتكور كالثعبان

— الرقصة توشك أن تبدأ

— لم لا نتعانق ..
قد صدى الماضى ، وغدا نصدأ

— ٣ —

وتقوست الأيدى
نبت الشجر القانى فى أنهار الغابات
واعشوشبت الرغبات
وتمزقت الضحكات
فوق الضحكات
وكأن الحزن الجاثم ،
فوق سماء العالم مات

— ٤ —

يا ديدان التاريخ الأسود
يا قطط الملك المخلوع
ضموا أطراف معاطفكم

فالفصل صقيع

والريح على الشرفات

الريح على العتبات

نسجت بعض الأكفان

لتنابلة السلطان

وعيون المحظيّات



الخطاة في المدينة

سوف يجيء يوم
دائماً سوف يجيء يوم
يَنْحَسِرُ الضوء عن اللعبة
وتشعر الصالة بالغربة

* * *

المتفرجون والأبطال
الشعراء والملوك والأطفال
الفقراء حاملوا المصاحف

الصفراء والنعال

القسس الخرس

ذوو اللحى المدلاة . .

ذوو المسابح الطوال

الصبية المشردون . .

حارسوا المدينة الكبرى من الزوال

كل الذين زلقت أقدامهم يوما

على سلالم الرغبة

كل الذين عبروا ابهاءها

الدافئة ، الرطبة

سيهبط الستار فوقهم ولن يعود

العنكبوت سيد الوجود

ليس غير العنكبوت والنسيج

حين يهبط الستار

وتخفت الأضواء والألوان والأريج
وينهض الشىء الذى لم نره . .
ولن نراه
يجىء لا ندرك من أين
تجيئنا خطاه
حيث يدوى صوته
فى ردهة الزمان :
— ياهؤلاء انتهت اللعبه
وآن للصالة أن تشعر بالغربه

* * *

سوف يجىء يوم
دائما سوف يجىء يوم
فلننتظر
لم يلتق العقرب بالعقرب

واللوحة الجوفاء فى الجدار
والطائر المشدود فى المشجب
يرتل الأشعار
لننتظر . .
نحن الذين لم تجىء أيامنا بعد
الدماء فى جلودنا الدميمة
جلودنا تصبغها الجريمة
نحن الذين نرفع النيران للشمس
ونعدو فى مسالك الهزيمه
الريح ذات الوهج الشاحب
ترتاح على سقوفنا القديمه
السادة القضاة واللصوص
السادة العبيد والذئاب
يلغطون فى الساحة :

— لو أعرف ماذا يلغطون —

يصعدون الدرج القديم

— لو أعرف ماذا يصنعون —

يقرعون الباب

يدخلون

— لا بأس . . ادخلوا

ادخلوا . .

واعجبا

رأيتكم أين ؟

متى رأيتكم ؟

نفس الرؤى المضحكة الكئيبة

الأوجه الممطوطة الجوفاء

النظرات الزئبق العجيبه

حينئذ بكيت . .

كنتم تلغطون . .

غنت البومة . . قلبت عيونها الغريبه

التفّت الأفعى على الحرباء

قفّ شعر الهرة السوداء

التقم التمساح ظهر الحوت

حينئذ قلت لـكم . .

ــ لا تحرقوا التابوت

موتىً هى الغابة

فاسكنوا بيوتـكم

عالمنا بحاجة إلى السكون

لحظة من السكون

* * *

السادة القضاة واللصوص

السادة العبيد والذئاب

في الساحة يلغطون
الناس ، والماشية العجفاء ، والوباء
الجامع الأبيض ، والـكـنيسة البيضاء
لا مكان بعد للحنان
لا مكان بعد للجلال
إمتدّت الحبـال
هـكـذا إذن
مددتم الحبال بين الأرض والسماء
هـكـذا إذن
يحترق الزمن
يا أيها المسكين يا طفلى . .
يا أطفال . .
لست أستطيع
أن أرى رؤوسكم ترقص فى الحبال

لست أستطيع

فى فمى ، فى قدمى

صوتى يضيع .

ضاعت الحكمة فى الضجة . .

ضاعت فى القطيع

إننا نضيع

إننا نضيع

١٩٦٤



الحلم والعجز !

« . . ثم اشتعلت ثورة ٢١ أكتوبر »

فى الليل طائر غريب . . طائر حزين

ينفض ريشه الدميم فى حديقتى

الليل فى حديقتى

ملوّن العيون !

* * *

مدينتى أمس مساء

تحت سورك الرخامى اتّكأت

كنت كئيبا موجعا ، حين أتيت
وضعت كالنبي ، طيبتي بجانبي . .
وسدت قلبي حجرا . .
ثم اضطجعت
وكالذي يحلم . .
أبصرت على الأفق سنابك الخيول
تخوض في وجهك يا مدينتي
في دمك النبيل
وكلما هممت يا مدينتي
أن تقفي
طوحك الهزال والنحول
حتى صحوت صارخا :
وجهك يا مدينتي تحت سنابك الخيول
ثم عدوت باكيا من شارع لشارع

وكلما أبصرنى الناس أهيم

فى الشوارع

تكسّر الزجاج فى عيونهم

كأنهم لا يبصرون

تساقط التراب من حلوقهم

كأنهم لا ينطقون

الناس يا مدينتى كأنهم منومون

الناس أصبحوا عجائبا

تضحك للمأساة . .

أصبحوا . . كأنهم لا يقدرون !

* * *

ما أجمل المساء فى عينيك يا مدينتى

منسكباً على حوائط البيوت

على كنائس النصارى الطيبين

على مآذن المساجد القديمه

على قبور الفقراء الفوضويين

على حقول القصب الكريمه

على الأزقة المعتمة التى

يولد فيها الشعر والجمال والجريمه

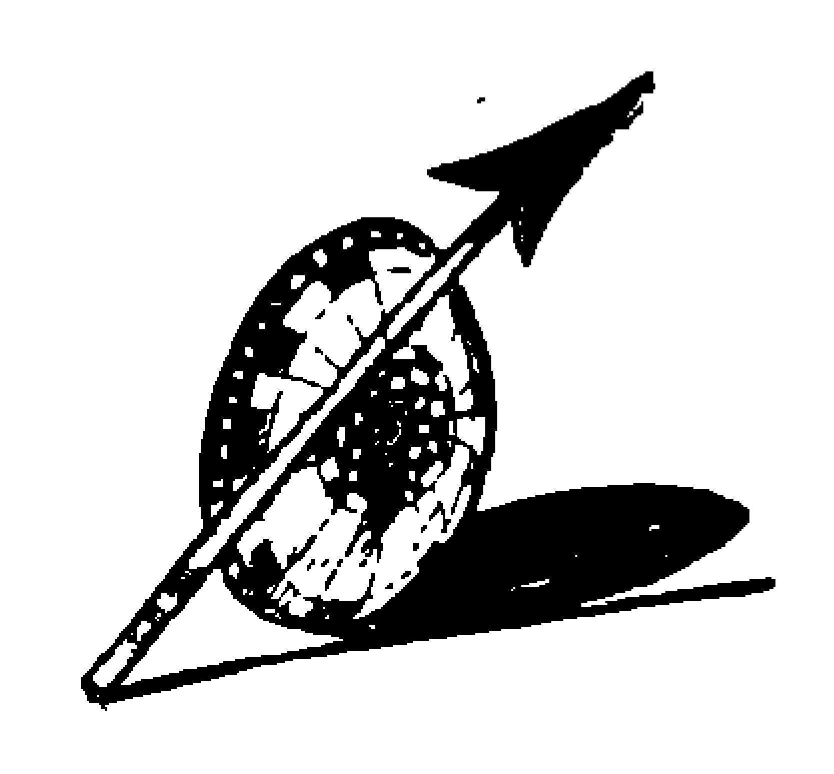
ما أجمل المساء

غير أنه هذا المساء

كطائر حزين

ينفض ريشه الدميم فى حديقتى

٦ — ٩ — ١٩٦٤



النافذة

الشمس فى شرفتها واقفة
تفك شعرها الأنيق
تنفضه ضفائرا على الطريق
ثم تغنى ، وتدير ظهرها إلى الحريق
الشمس فى غرفتها
والجوع فى الخارج والضباب
يحدّقان كاللصوص من ثقوب الباب

ويعضغان شجر العـذاب

* * *

ثم استدارت مرتين

الشمس فى غرفتها استدارت مرتين

مالت بعنقها الجميل

الوثنى المستطيل

والشعر المـاسى فى قمته قنديل

يميل حيثما تميل

عادة تنزلق القطيفة الحمراء

عن كتفين مثل هاتين الحمراء

ينزلق الحرير خطوتين

ينزلق الحرير للركب

يشحب لونه من التعب

ويقشعر الصمت والصخب

وتنبت الأعشاب فى السحب

* * *

ثم تطلعت إلى المرآه
لست وحدك التى تحدقين الآن
يا شمس فى المرآه
فالضباب والجوع يحدقان
يا شمس فى المرآه
تبتسمان فى انبهار وعجب
إلى عناقيد البنفسج الذى انسكب
فزوّق المرآة بالألوان
ثم انعكسا
وصار قبّة مشعة . .
وصار ليلا مشمسا

* * *

يا شمسها

يا سيدى الجسد

يأكلنى الحسد

لا تغلق النافذة انتظر

إنى على نافذة الرصيف أنتظر

أسيل أحزانا ولا أحد

أرنو . . وأرتعد

قلبى يرتعد

والليل يرتعد

والنور يرتعد

والطائران الجائعان

يحلقان فوق وجهى ، وينقّران

نافذة الأبد

١٩٦٤

دون كيشوت الثانى

دون كيشوت الثانى

صدئت عيناك . .

وغطت أعشاب الأرض السوداء خطاك

فلتدفن رأسك فى الطين

يادون كيشوت المسكين

* * *

الحلبة فارغة العينين

بلا كفّين

بلا جمهور يزرع ملء جوانبها الضوضاء

وتجىء تجرجر سيفك فى خيلاء

تتلاعب بالسيف الخشبيّ وبالحربة

لا تخجل من هذا الصمت الضافى فوق الحلبة

« سيفى مثلى ظمآن

وحصانى أىْ حصان

وأنا الموت الأحمر

أنا جلاد الفرسان

* * *

يا دون كيشوت زمانك

إنك تضحكنا . .

تبكينا . .

يا دون كيشوت الثانى إنك لعبه . .

إنك لعبه !

* * *



وثن ذهبي كان

سقطت عنه الألوان

فتعرى ، والإنسان

ماذا يبقى منه . .

لو مات بداخله الإنسان !



رسالة إلى جميلة

لن تسمع الجدران يا جميلة
فالسجن مثل جبهة السجان
من حجر صخر ، ومن صوان
وما الذى تصنع راحتان
نحيلتان ، مستطيلتان
لا مرأة صغيرة .. نحيله

* * *

السجن لا يسمع يا جميله
إلا انقضاض المعاول
إلا دوى الزلازل
إلا انفجار الزلازل
السجن سكران ، قاتل
وأنت لا فأس ، ولا معولُ
لا خنجر ماض ، ولا منجل
أنت هنا حمامة تحجل
فى قدميها السلاسل

* * *

الساعة الآن تدق الغداه
تدق باب الليلة التاليه
الساعة الواحدة .. الثانيه
ثلاث دقات بقلب الحياة

ثلاث خطوات تشد الظلال
وراءها في ظلمة السجن
أى حياة داخل السّجن
هل سألت عيناك هذا السؤال
وأنت بين السوط والقيد
فابتلّتا بأدمع الحقد
أم يا ترى لمحت بين الحبال
طلائع الثوار حول الجبال
وهى تسد الأفق بالأيدى
فاهتز فى قلبك حب جميل
مشى حزينا فوق هذى الرمال
حب فتى جزائرى نبيل
ما زال حيًّا فى صفوف النضال
لعله الآن ساهر

يرقب نور الجزائر
لعله الساعة يا جميلة
يصغى لتنهيدتك الطويلة
حين تدق الأذرع الثقيلة
ثلاث دقات فجائية
وزحف باب ثقيل
أشبه بالرعد
أشبه بالطوفان يا جميله
والليلة .. الليلة صحو جميل
يلوح عن بُعد
من كوة السجن الضبابيّة
لابُدأنالصحوهذا الجميل
يلف حتى حائط السجن
لا بد أنه يلف الحقول

وشجر الزيتون ملء السهول

وسعف النخل الطويل..الطويل

وورق التفاح والورد

لا بد أنه يضيء السيل

لثورة تزحف عن بعد

* * *

ما أجمل الحياة يا جميله

لولا جنون الطغاة

وقهقهات السجون

لأن ظالماً يحب الحياة

ويكره الآخرين

لأن سيدا يحب العبيد

ويكره الثائرين

لأن سجانك يا جميله

أيتها النــار الجزائرية
كل جنود الإمبراطورية

* * *

لا تطرق رأسك ياجميله
لا تخفضي جبهتك النبيله
خوف جنود الامبراطورية
قفي بوجه العذاب
شامخةً بالعذاب
لا تدعي نقمتهم تقتلك
لا تدعي رحمتهم تغسلك
إنك قبر الإمبراطورية
إنك تسقين بآلامك
أشعة الشمس الجزائرية
إنك تمشين بأقدامك

فوق جلال الامبراطورية
فوق عروش قَتَله
ما زال فى أعينهم جوع الملوك
ما زال فى دمائهم صراخ القتله
ما زال فيهم رعشة القراصنة
تمتد مليون سنة
ما زال صوت تجار الرقيق
ما زال صوت المقصله
يبعث فيهم الحنين والوله

* * *

أأضرب الأمثال يا جميله
أأملأ العروق بالثارات
أأملأ الوجوه بالوجوم !
أأملأ السماء بالغيوم

إذن هبيني ساعة من حياه

حياة روح داخل السجن

حياتك الساعة يا جميله

فى ليل زنزانتك الطويله

حين تدور ساعة الحزن

ثلاث دورات فجائيه

وحين لا ينفذ للأذن

إلا خطى الجند الحديديه

وهى تجوب ساحة السجن

فى رعشة شبه جنونية

إذن .. هبيني قوة الوجود

قوة إنسانية البشر

قوة ألف ثائر فى القيود

يفجرون طاقة القدر

قوة شعبك العظيم

غضبان فرحان ثائر

قوة روحك المشع

فوق سماء الجزائر

١٩٥٧



مقتل السلطان تاج الدين

[بطل شعبي قاد نضال قبائل المساليت المشهورة فى غرب السودان ، ضد القوات الفرنسية الغازية .. وسقط شهيداً فى معركة النصر عام ١٩١٠] .

فوق الأفق الغربى سحاب أحمر لم يمطر
والشمس هنالك مسجونه
تتنزّى شوقاً منذ سنين
والريح تدور كطاحونه

حول خيامك ياتاج الدين

* * *

يا فارس

سرج جوادك ليس يلامس ظهر الأرض

وحسامك مثل البيرق يخترق الظلمات

يافارس

مثل الصقر إذا ما انقض

بيتك عالى الشرفات

ناركلاتخبو .. لا تسود

وجارك موفور العرض

يا فارس ..

حتى مات !

— ٢ —

« كان السلطان يقود طلائعنا
نحو الكفار
وكان هنالك بحر الدين
وأشار إلينا تاج الدين
وأطل بعينيه كالحالم . .
فى قلب السهل الممتد
ثم تنهد :
« الحرب الملعونه
« ياويل الحرب الملعونه
« أكلت حتى الشوك المسود
لم تُبق جدارا لم ينهدْ
« ومضى السلطان يقول لنا
ولبحر الدين :

— هذا زمن الشدة يا إخوانى
هذا زمن الأحزان .
سيموت كثير منا
وستشهد هذى الوديان
حزناً لم تشهده من قبل ولا من بعد

* * *

وارتاح بكلتا كفيه فوق الحربه
ورنا فى استغراق
نحو وجوه الفرسان
كان الجو ثقيلا ، مسقوفاً بالرهبه
وبحار من عرق تجرى فوق الأذقان
وسيوفهم المسلولة تأكلها الرغبه
والخيل سنابكها تتوقد كالنيران
ومضى السلطان يقول لنا
ولبحر الدين :

— هذا زمن الشدة يا إخوانى
فسيوف الفرسان المقبوضة بالأيدى
تغدو حطبا ما لم تقبضها بالايمان
والسيف القاطع فى كف الفارس
كالفارس يحلم بلقاء الفرسان

* * *

وترجل تاج الدين
جبلٌ يترجل مزهواً من فوق جبلْ
وترجل بحر الدين .
وحواليه عشرة آلاف رجل
سجدوا فوق رمال « دروتى » لله معه
وأطلَّتْ كل عيون الطير المندفعه
فى هجرتها من أقصى الغرب لتاج الدين
فعلى أفق الوادى الغائم
تمتد رؤوس وعمائم

وبيارق يشبهن حمائم

.. ثم ارتَجَفَتْ أفواج الطير

وراء السحب المرتفعه

— ٣ —

— يا تاج الدين

الأعداء أمامك .. فارجع

لهب .. وقذائف حمر ..

وخوذات تلمع

والحربة مهما طالت

لن تهزم مدفع

لن تهزمهم ياتاج الدين

بسلاح كزمانك مسكين

وكعاصفة سوداء تلفت تاج الدين

فى سخط الجبارين تلفت تاج الدين



وأطل على وجه القائل

كانت شفتاه رعودا وزلازل

كانت كلمات السلطان

سلاسل

— يا ويلك لو لم تك ضيفي يا عبد الله

ما أقبح ما حركت به شفتيك

ما أبشع ما منيت به عينيك

عار ما قلت ..

وعار أن نستمع إليك

فاثن زمام جوادك

وخذ الدرب الآخر

يا بحر الدين أعده للدرب الآخر

— ٤ —

وتدفقت الرايات

وغطى الأفق صهيل الخيل

و « درونى » العطشى ما زالت
تحلم بمجىء السيل
وتحدر من خلف الوديان المحجوبه
علم قانٍ .. ومدافع سبع منصوبه
وحرائق وضجيج شياطين
— ها هم قدموا ياتاج الدين
فانشر دقات طبولك ملء الغاب
حاربهم بالظفر ، وبالناب
طوبى للفارس
إن الحرب اليوم شرف
طوبى للفارس
إن الموت اليوم شرف
داسوا عزة أرضك
هتكوا حرمة عِرضك

عاثوا ملء بلادك غازين
غرباء الأوجه سفاكين
فاضرب .. اضرب .. ياتاج الدين
اضرب .. اضرب .. اضرب ..

— ٥ —

— يامولاى السلطان
سلام الله عليك
قتلى أعداؤك مطروحون
لدى قدميك
أسرى مغلولون وخُدّام بين يديك
أكلت نيران مدافعهم نيرانُك أنت
بالسيف وبالحربه
وبإيمانك قاتلت
يا فارس تسحق أعداءك

أنى أقبلت

حين استبقوا نحوك

باسم بلادك ناديت

« لن يحجبنى عن حبك شىء »

« إنك ملء دماى وعينى »

« يا دار مساليت أناحىّ »

— ٦ —

وهجمت فأجفل قائدهم

وانشق ستار

كان ستار رصاص

كان ستارا من نار

نصبوه فى وجهك صفين

كى لا ترى قائدهم بالعين

لـكنك يا فارس أقدمت

فوق المدفع بالسيف مشيت
ولحقت بقائدهم فانهار
القائد ذو الجبروت انهار
ذو المركبة النارية والخوذات انهار
أحنى رأسا ماتت فى عينيه الرغبات
مدَّ يديه يبكى فى حشرجة الأموات
عرّى صدرا دمويا أعشب فيه العار
هذا الصدر العارى المنهار
من قبل لقائك زانته نياشين الأكبار
لكنك يا فارس آليت
أن لاتهب الكافر صفحك
أن تسقى من دمه رمحك
أن تصلبهم عبر الفلوات
أن تجعل موتاهم مثلا
لزمان عبر زمانك آت

— ٧ —

تحت الراية غرقت رأس القائد فى الدم

أرخى عينيه فى رعب ..

ثم استسلم

— سلمت كفك يا تاج الدين

فاقض على أحلام الباقين

صاروا بعد القائد

قطعان غنم

طاردهم بجنودك

عبر الفلوات

عبر « دورتى » عبر الأكمات

قتلاك من الأعداء مئات

والأسرى قد ملأوا الساحات

والقائد ملقى فى الطرقات

سلمت كفك ياتاج الدين

— ٨ —

لكن الشمس المسجونه

والريح الجبلى الملعونه

ما زالت مثل الطاحونه

تجرى . . تجرى حول خيامك

تجرى من خلفك وأمامك

— يا تاج الدين

— يا تاج الدين

ما زال عداتك مختبئين

أيديهم راعشة . . ورصاص بنادقهم

يتزاحم فى بطء نحو جبينك

يا فارس خذ حذرك

من طعنات طعينك

يا فارس خذ حذرك

يا فارس خذ حذرك

ليتك لا تتحرك

فبنادقهم لا زالت راكضة اثرك

أترى تثقب رأسك

أترى تثقب صدرك

يافارس خذ حذرك

ليتك لا تتحرك

.. وتحرك تاج الدين

كانت عيناه حينئذ

تقفان على جرحاه

والراية فى عيناه

قد لطخها الدم

وأنت ريح خريف
تترا كض خلف خطاه
وَتَجَهَّم وجه « درونى » بالسحب وأظلم
وأنت بضع رصاصات
خجلات مضطربات
أقبلن من الظلمات
فرأينا تاج الدين
يبدو وكأن قد مات
يا تاج الدين سلمتْ
مزق أستار الصمت
عد من وديان الموت
أو تذهب حتى أنت
وتساقط تاج الدين

لم يقو الفارس أن يرجع

لبـكاء الشعب عليه

فرصاصات خمس صدئات

تسكن فى عينيه

لـكن أحدا لم ير رايته

تسقط من كفيه

مارس ١٩٦٤

إلى بول روبسون المغنّى

كانوا يُخفون خناجرهم فى أوجههم حين تغنى

وتشيب سوالفهم حقدا

وتشبح نيويورك مهينه

فغناؤك يجلدها

يستعبدها

ويُجرّدها

من زينتها ، فتلوح بلا زينة

جثث الأحياء ، وأقبية الأموات
ورؤوس المهزومين الغضبى المحزونه
تتدحرج فى الطرقات
تتسلق أشجار الغابات
تسترجع حلم الأرض المطعونه .
أرض المأساة
ويحلّق فوق الليل الثلجى الممتد
ليل نيويورك .. غناؤك
يا شاهد فجر الشعب الأسود
يا أروع من غنى للعالم ، أحزان العالم
يا شاعر أمريكا الفقراء
ومغنّيها
الزنجى الضائع منا ، تحت تراب مبانيها
بحـار السفن الغرقى ، حول موانيها


US
US
US
US
US

« بلياتشو » المقهى ذو الوجه المدهون
اللون القاتم ، فى لوحات الرسامين
أحجار مناجمها
ودخان مواسمها
لحم الإنسان الساخن .. والسكين

* * *

— ماذا تعنى بالنسبة لى (*)
— أنا أعرف ماذا تعنى أمريكا بالنسبة لك
الخنجر فى قلبك
فى روحك .. فى الداخل
وتُغَنِّى للقاتل
تستغفر من قتلك
ماذا تعنى بالنسبة لك

(*) مطلع أغنية شهيرة لبول روبسون .

أن ترفع كأس سقوطك مزهوًّا
فى صحة جلاديك
أن تبتر ثديى أمك . .
أن تلهو بعظام أبيك
أن تحيا فى ماضيك

* * *

يا بول روبسون
مات الطفل الزنجى . .
وماتت جدته العمياء
إلا كلمات . .
قالتها فى أذنيه ذات مساء
يا أبنائى غنوا للشدّه
غنوا للشدة
لا يخلع إنسان منكم جلده

٤ — ١٢ — ١٩٦٤

أعمال شعرية صدرت

* أغانى أفريقيا

طبعة أولى عام ١٩٥٥

طبعة ثانية عام ١٩٥٦

* عاشق من أفريقيا

طبعة أولى عام ١٩٦٤

أعمال شعرية تحت الطبع

* سولارا (أوبرا شعرية أفريقية من ثلاثة فصول)

مطابع دار القلم بالقاهرة

هذا الشاعر

* صاحب أول صوت شعرى ، انطلق فى عالمنا العربى المعاصر ، مدافعاً عن قضية الإنسان الأفريقى ، وثورته ضد الاستعمار والاستغلال والرجعية السوداء.
* وكما لفت ديوانه الأول « أغانى أفريقيا » الذى صدر عام ١٩٥٥ اهتمام النقاد والدارسين العرب ، فقد حظى بنفس الاهتمام ، فى دوائر الثقافة والنقد والترجمة خارج الوطن العربى.
* ترجمت له المستشرقة الروسية لينا استيفانوفا كثيراً من أعماله الشعرية إلى لغات الاتحاد السوفيتى العديدة ، كما ترجم له المستشرق اليوغسلافى الدكتور حسن قلشى إلى اللغات اليوغسلافية ، والمستشرق الألمانى د. هانس ڤير ، والمستشرقة د. انيمارى شيمل إلى الألمانية ، كما ترجمت قصائد أخرى إلى الفرنسية والإ[...] والإيطالية ، حيث تدرس لطلبة الدراسات ا[...] فى مختلف الجامعات هناك.
* على المستوى الأكاديمى ، كتبت بعض الد[...] لنيل درجات جامعية فى أعماله الشعرية. نذ[...] رسالة دكتوراه تقدم بها الأستاذ مجدى يوسف ا[...] بجامعة كولونيا ، حول تفسير القيم الجمالية فى شع[...]

